الفصل الثالث عشر

غزوة بدر الكبرى

خروج أبي سفيان إلى الشام – محاولة المسلمين قطع الطريق عليه – نجاته في الذهاب – انتظارهم إياه في أوبته – علم قريش بتجهيز المسلمين – خروجهم إلى بدر نجاة أبي سفيان بتجارته – تردد قريش والمسلمين في القتال – زوال التردد – موقف الفريقين في بدر – حماسة المسلمين وانتصارهم.

تجارة أبي سفيان:

كان سَرِيَّة عبد الله بن جحش مفترق طرق في سياسة الإسلام، فيها رمى واقد بن عبد الله التميميّ عمرو بن الحَضْرَميّ بسهم فقتله، فكان أوّل دم أراق المسلمون. وفيها نزلت الآية التي قدّمنا؛ وعلى أثرها شُرِع قتال الذين يَفْتِنون المسلمين عن دينهم ويصدّون عن سبيل الله. وكانت هذه السرّية مفترق طرق كذلك في سياسة المسلمين إزاء قريش، أن جعلت الفريقين يتناظران بأسًا وقوّة. فقد جعل المسلمون يفكرون من بعدها تفكيرًا جِديًّا في استخلاص أموالهم من قريش بغزوهم وقتالهم. ذلك بأن قريشًا حاولت إثارة شبه الجزيرة كلها على محمد ﷺ وأصحابه أن قتلوا في الشهر الحرام؛ حتى لقد أيقن محمد ﷺ أن لم يبق في مصانعتهم أو في الإتفاق معهم رجاء. وقد خرج أبو سفيان في أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة يقصد الشام، وهي التجارة التي أراد المسلمون اعتراضها حين خرج النبي ﷺ إلى العُشَيرة. لكنهم إذ بلغوها كانت قافلة أبي سفيان قد مرّت بها ليومين من قبل وصولهم إليها؛ إذ ذاك اعتزم المسلمون انتظارها في عودتها. ولما تَحَيَّن محمد انصرافها من الشام بعث طَلْحة بن عُبَيْد الله وسعيد بن زيد ينتظران خبرها، فسارا حتى نزلا على كَشْدٍ الجُهَنيّ بالحَوْراء وأقاما عنده في خِباء حتى مرّت العِيرُ، فأسرعا إلى محمد ليُفضيا إليه بأمرها وما رأيا منها.

خروج المسلمين إلى بدر:

على أن محمدًا ﷺ لم ينتظر رسوليه إلى الحوراء وما يأتيان به من خبر العِير؛ فقد ترامى إليه أنها عِيرٌ عظيمة، وأن أهل مكة جميعًا اشتركوا فيها، لم يبق أحد منهم من الرجال والنساء استطاع أن يساهم فيها بحظ إلا فعل، حتى قُوِّم ما فيها بخمسين ألفًا من الدنانير. ولقد خشي إن هو انتظرها أن تفوته العِير في عودتها إلى مكة كما فاتته في ذهابها إلى الشام. لذلك ندب المسلمين وقال لهم: هذه

عِير قريش؛ فاخرجوا إليها لعل الله ينَفُلُكُموها. وخفّ بعض الناس وثقُل بعض، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا طمعًا فى الغنيمة، فأبى محمد عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله.

رسول أبى سفيان إلى قريش:

أمَّا أبو سفيان فكان قد اتصل به خروج محمد لاعتراض قافلته حين رحلتها إلى الشام، فخاف أن يعترضه المسلمون حين أوبته بعد أن رَبِحت تجارته، وجعل ينتظر أخبارهم. وكان الجهنىّ الذى نزل عليه رسولا محمد بالحوراء بعضَ من سأل. ومع أن الجهنىّ لم يصدُقه الخبرَ فقد بلغه من أمر محمد والمهاجرين والأنصار معه مثل ما ترامى إلى محمد من خبره؛ فخاف عاقبة أمره أن لم يكن من قريش فى حراسة العِير إلا ثلاثون أو أربعون رجلًا. عند ذلك استأجر ضَمْضَم بن عمرو الغِفَارِىّ فبعثه مسرعًا إلى مكة ليستنفر قريشًا إلى أموالهم، ويخبرهُم أن محمدًا قد عَرض لها فى أصحابه. ووصل ضمضم من مكة إلى بطن الوادى فقطع أُذُنَىْ بعيره وجدَع أنفه وحوّل رحله ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قُبُل ومن دُبُر وجعل يصيح. يا معشر قريش! اللطيمة[1] اللطيمةَ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها. الغَوْثَ الغَوْثَ! وما لبث أبو جهل حين سمعه أن صاح بالناس من عند الكعبة يَسْتنفرهم. وكان أبو جهل رجلا خفيفًا حديدَ الوجه حديد اللسان حديد النَّظر. ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها، وقد كان لكل منهم فى هذه العِير نصيب.

ثأر قريش وكنانة:

على أن طائفة من أهل مكة كانت تشعر بما ظَلَمت قريش المسلمين من أهلها حتى أكرهتهم على الهجرة إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة، فكانت تتردد بين النفير للذود عن أموالها والقعود رجاء ألا يصيب العير مكروه. وهؤلاء كانوا يذكرون أن قريشًا وكنانة بينهما ثأر فى دماء تبادل الفريقان إراقتها. فإذا هى خفت إلى لقاء محمد لمنع عِيرها منه خافت بنى بكر (من كنانة) أن تهاجمها من خلفها. وكادت هذه الحجة تَرْجَح وتؤيد رأى القائلين بالقعود، لولا أن جاء ملك بن جُعْشم المُدْلِجى، وكان من أشراف بنى كنانة، فقال: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه. إذ ذاك رجحت كفة أبى جهل وعامر بن الحَضْرمى والدُّعاة إلى الخروج لدفع محمد والذين معه، ولم يبق لكل قادر على القتال عذر فى التخلف أو يرسلَ مكانه رجلا. ولم يتخلف من أشراف قريش إلا أبو لهب الذى بعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة وكان لطًّا[2] له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه أفلس بها. وكان أمية بن خَلف قد أجمع على القعود، وكان شيخًا جليلًا جسيمًا ثقيلًا، فأتاه

---

(١) اللطيمة: المال والتجارة.

(٢) لط الغريم بالحق: ماطل فيه ومنعه، ولط حقه جحده.

بالمسجد عُقْبة بن أبى مُعَيْط وأبو جهل، ومع عقبة مِجْمَرة فيها بَخُور ومع أبى جهل مُكْحُلة ومِرْوَد فوضع عُقبة المِجمرة بين يديه وقال: يا أبا على استجْمِر فإنما أنت من النساء. وقال أبو جهل: اكتحل أبا على فإنما أنت امرأة. فقال أمية: ابتاعوا لى أفضل بعير فى الوادى، وخرج معهم؛ فلم يبق بمكة متخلف قادر على القتال.

مسيرة جيش المسلمين:

أما النبى عليه السلام فقد خرج فى أصحابه من المدينة، لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وجعل عمرو بن أم مكْتوم فيها على الصلاة بالناس، ورد أبا لبابَة من الرَّوْحاء واستعمله على المدينة. وكانت أمام المسلمين فى مسيرتهم رايتان سوداوان، وكانت إبلهم سبعين بعيرًا جعلوا يَعْتَقبونها[1]، كل اثنين منهم وكل ثلاثة وكل أربعة يعتقبون بعيرًا. وكان حظ محمد فى هذا كحظ سائر أصحابه؛ فكان هو وعلىّ بن أبى طالب ومَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغَنوى يعتقبون بعيرًا. وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرًا وكانت عدَّة مَن خرج مع محمد إلى هذه الغزوة خمسة وثلثمائة رجل، منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وواحد وستون من الأوس والباقون من الخزرج. وانطلق القوم مسرعين من خوف أن يفلت أبو سفيان منهم، وهم يحاولون حيثما مرّوا أن يقفوا على أخباره. فلما كانوا بعرْق الظبْية لَقُوا رجلا من الأعراب فسألوه عن القوم فلم يجدوا عنده خبرًا.

خروج قريش من مكة:

وانطلقوا حتى أتوْا واديًا يقال له ذَفِران نزلوا فيه، وهناك جاءهم الخبر بأن قريشًا قد خرجوا من مكة ليمنعوا عيرهم. إذ ذاك تغيَّر وجه الأمر. لم يبق هؤلاء المسلمون مهاجروهم والأنصار أمام أبى سفيان وعِيره والثلاثين أو الأربعين رجلا معه، لا يملكون مقاومة محمد وأصحابه؛ بل هذه مكة خرجت كلها وعلى رأسها أشرافها للدفاع عن تجارتها. فَهب المسلمين أدركوا أبا سفيان وتغلبوا على رجاله وأسروا منهم من أسروا واقتادوا إبَله وما عليها، فلن تلبَث قريش أن تدركهم، يَحْفزها حرص على مالها والدفاع عنه وتُؤازرها كثرة عديدها وعُدَدها، وأن توقع بهم وأن تستردّ الغنيمة منهم أو تموت دونها. ولكن إذا عاد محمد من حيث أتى طمعت قريش وطمعت يهود المدينة فيه، واضطر إلى موقف المصانعة، واضطر أصحابه إلى أن يحتملوا من أذى يهود المدينة مثل ما احتملوا من أذى قريش بمكة. وهيهات إن هو وقف هذا الموقف أن تعلو كلمة الحق وأن ينصر الله دينه.

مقالة الأنصار:

استشار الناسَ وأخبرهم بما بلغه من أمر قريش؛ فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما، ثم قام المقداد بن

(١) الاعتقاب هنا: أن يركب الواحد البعير مدة ثم ينزل ليتبعه الآخر فيركبه.

عمرو فقال: «يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون». وسكت الناس. فقال الرسول: أشيروا عليَّ أيها الناس. وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم. فلما أحس الأنصار أنه يريدهم، وكان سعد بن مُعَاذ صاحب رايتهم التفت إلى محمد وقال: نَكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أَجَلْ. قال سعد: «لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحقّ، وأعطيْناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة؛ فامض لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحرَ فَخُضْتَه لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد. وما نكره أن تَلقَى بنا عدوّنا غدًا. إنا لَصُبُرٌ فى الحرب صُدُقٌ فى اللِّقاء - لعل الله يريك منا ما تقَر به عينك، فسرْ بنا على بركة الله». ولم يكد سعد يتم كلامه حتى أشرق وجه محمد بالمسرة وبدا عليه كل النشاط وقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين. والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وارتحلوا جميعًا، حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق محمد على بعيره حتى وقف على شيخ من العرب وسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه، ومنه عرف أن عير قريش منه قريب.

تنطس الأخبار:

إذ ذاك عاد إلى قومه، فبعث عليّ بن أبى طالب والزُّبَيْر بن العوّام وسعد بن أبى وقّاص فى نفر من أصحابه إلى ماء بدر يتلمَّسون له الخبر عليه. وعادت هذه الطليعة ومعها غلامان عرف محمد منها أن قريشًا وراء الكَثيب بالعدْوةِ القُصْوَى. ولما أن أجابا أنهما لا يعرفان عدَّة قريش، سألهما محمد كم ينحرون كل يوم؟ فأجابا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا. فاستنبط النبى من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف. وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش جميعًا خرجوا لمنعه؛ فقال لقومه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كَبِدها» إذًا فلابدَّ له ولهم أمام قوم يزيدون عليهم فى العدد ثلاثة أضعاف أن يَشْحَذوا عزائمهم. وأن يوطِّنوا على الشدة أفئدتهم ونفوسهم، وأن ينتظروا موقعة حامية الوطيس لا يكون النصر فيها إلا لمن ملأ الإيمان بالنصر قلبه.

انفلات أبى سفيان ونجاة عيره:

وكما عاد عليّ ومن معه بالغلامين وبخبر قريش معهما ذهب اثنان من المسلمين حتى نزلا بدرًا، فأناخا إلى تلّ قريب من الماء وأخذا وعاء لهما يستقيان فيه. وإنهما لعلى الماء إذ سمعا جاريةً تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها: إنما تأتى العير غدًا أو بعد غد، فأعمل لهم ثم أقضيه لك. وعاد الرجلان فأخبرا محمدًا بما سمعا. فأما أبو سفيان فسبق الغير يتَنطَّس الأخبار حَذَرَ أن يكون محمد قد سبقه إلى الطريق. فلما ورد الماء وجد عليه مَجْدِيَّ بن عمرو، فسأله: هل قد رأى أحدًا؟ وأجاب مَجْدِيٌّ بأنه لم يرد إلا راكبين أناخا إلى هذا التلّ، وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين. فأتى

أبو سفيان مُناخَهُا فوجد فى روث بعيريها نوًى عرفه من علائف يثرب، فأسرع عائدًا إلى أصحابه وعدل بالسير عن الطريق مُساحلاً البحر مسرعًا فى مسيره، حتى بَعُد ما بينه وبين محمد، ونجا.

وأصبح الغد والمسلمون فى انتظار مروره بهم، فإذا الأخبار تصلهم أنه فاتهم وأن مُقاتَلة قريش هم الذين ما يزالون على مقربة منهم؛ فيذوى فى نفوس جماعة منهم ما كان يملؤها من أمل الغنيمة، ويجادل بعضهم النبىَّ كى يعودوا إلى المدينة ولا يَلْقَوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم. وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وإِذْ يَعِدُكُم الله إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَات الشوْكة تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكافِرين﴾[1].

أيكون قتال؟

وقريش هم أيضًا، ما حاجتهم إلى القتال وقد نجت تجارتهم؟ أليس خيرًا لهم أن يعودوا من حيث أتوا، وأن يتركوا المسلمين يرجعون من رحلتهم بِخفَّىْ حنين؟ كذلك فكر أبو سفيان وبذلك أرسل إلى قريش يقول لهم: إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجَّاها الله فارجعوا، ورأى من قريش رأيه عددٌ غير قليل. لكن أبا جهل ما لبث حين سمع هذا الكلام أن صاح: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا فنُقيمَ عليه ثلاثًا ننحر الْجُزُر، ونُطْعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا بعدها. ذلك أن بدرًا كانت موسمًا من مواسم العرب؛ فانصراف قريش عنها بعد أن نجت تجارتهم قد تفسره العرب، فيما رأى أبو جهل، بخوفهم من محمد ﷺ وأصحابه، مما يزيد محمدًا شوكةً ويزيد دعوته انتشارًا وقوة وخاصةً بعد الذى كان من سَرِيَّة عبدالله بن جحْش وقتل ابن الحَضْرَمىِّ وأخذ الأسرى والغنائم من قريش.

نزول المسلمين بدرًا:

وتردّد القوم بين اتباع أبى جهل مخافة أن يُتَّهموا بالجبن، وبين الرجوع بعد أن نجت عيرهم فلم يرجع إلا بنو زُهرة الذين اتبعوا مشورة الأخنَس بن شريق، وكان فيهم مطاعًا. واتبعت سائرُ قريش أبا جهل حتى ينزلوا منزلا يتهيئون فيه للحرب ثم يتشاورون بعد ذلك. ونزلوا بالعُدوة القُصْوى خلف كثيب من الرمل يحتمون به. أمَّا المسلمون الذين فاتتهم الغنيمة فقد أجمعوا أن يثبتوا للعدو إذا أجمع على محاربتهم، لذلك بادروا إلى ماء بدر، ويَسّر لهم مطر أرسلته السماء مسيرتَهم إليها. فلما جاءوا أدنى ماء منها نزل محمد به . وكان الحُبَاب بن المُنْذِر بن الجَمُوح عليما بالمكان؛ فلما رأى حيث نزل النبىّ قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال محمد: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فقال:

---

(١) سورة الأنفال آية ٧.

يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل؛ فانهضْ بالناس حتى تأتيَ أدنى ماء من القوم فتنزلَ ثم نُغَوِّر ما وراءه من القُلُب[١]، ثم نبنى عليه حوضًا فنملأه ماء ثم نقاتلَ القوم فنشربَ ولا يشربون. ولم يلبث محمد حين رأى صواب ما أشار به الحُبَاب أن قام ومن معه واتَّبع رأى صاحبه، معلنًا إلى قومه أنه بشرٌ مثلهم وأن الرأى شُورَى بينهم وأنه لا يقطع برأى دونهم، وأنه فى حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم.

بناء العريش للنبى ﷺ:

ولما بَنَوا الحوض أشار سعد بن مُعاذ قائلا: «نبى الله، نبنى لك عريشًا تكون فيه وتُعدُّ عندك ركائبك ثم نَلْقَى عدوَّنا؛ فإن أعزّنا الله وأظهرَنا على عدوّنا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحِقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبىّ الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقَى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك». وأثنى محمد على سعد ودعا له بخير، وبنى العريش للنبى، حتى إذا لم يكن النصر فى جانبه وجانب أصحابه لم يقع فى يد عدوّه واستطاع اللَّحاق بأصحابه فى يثرب.

صدق إيمان المسلمين:

هنا موضع لوقفة إعجاب بصدق وفاء المسلمين وعظيم محبَّتهم لمحمد وإيمانهم برسالته. فها هم أولاء يعلمون أن قريشًا تفوقهم فى العدد وأنها ثلاثة أمثالهم، ومع ذلك اعتزموا الوقوف فى وجهها وقتالها. وها هم أولاء يرون الغنيمة فاتتهم فلم يصبح الكسب المادى هو الذى يحفزهم للقتال، ومع ذلك قاموا إلى جانب النبىّ يؤيدونه ويعزّزونه. وها هم أولاء تتردّد نفوسهم بين الطمع فى النصر وخوف الهزيمة. ومع ذلك فكروا فى حماية النبىّ وتَوْقيته أن يظفر به عدوّه، ومهدوا له سبيل الاتصال بمن ترك بالمدينة. فأىّ موقف أدعى للإعجاب من هذا الموقف؟ وأىّ إيمان يكفل النصر كهذا الإيمان!

حمزة يقتل ابن عبد الأسد:

ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقصّ لهم خبر المسلمين فجاءهم بأنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلا أو ينقصون، ولا كمين لهم ولا مورد؛ ولكنهم قوم ليس لهم مَنْعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله. ولمَّا كانت صفوة قريش قد خرجوا فى هذا الجيش، خشى بعض ذوى الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم فلا تبقى لمكة مكانة. لكنهم خافوا حدّة أبى جهل ورميه إيَّاهم بالجبن والخوف، وإن لم يمنع ذلك عُتْبة بن ربيعة من أن يقف بينهم قائلا: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا. والله لئن أصبتموه لايزال

(١) القلب: جمع قليب، وهو البئر. يذكّر ويؤنث. وتغويرها: كبسها بالتراب حتى ينضب ماؤها.

الرجل ينظر فى وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب؛ فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك لم تتعرّض منه لما تكرهون». فلمّا بلغت أبا جهل مقالة عتبة استشاط غيظًا وبعث إلى عامر بن الحضرمىّ يقول له: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانْشُدْ مقتلَ أخيك». وقام عامر فصرخ: وَاعَمْراه! فلم يبق بعد ذلك من الحرب مفرّ. وأعجل القتالَ أن اندفع الأسْوَد بن عبد الأسد المَخْزومىّ من بين صفوف قريش إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذى بنوا؛ فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة أطاحت بساقه فسقط إلى ظهره تشخب رجله دمًا، ثم أتبعها حمزة بضربة أخرى قضت عليه دون الحوض. ولا شىء أرهف لظُبَا السيوف من منظر الدم: ولا شىء أشدّ إثارة لعواطف القتال والحرب فى الإنسان من مرأى رجل مات بيد العدوّ وقومه وقوف ينظرون.

وما إن سقط الأسود حتى خرج عُتْبة بن رَبيعة بين أخيه شَيْبة وابنه الوليد بن عتبة ودعا إلى المبارزة. وخرج إليه فتْيَةٌ من أبناء المدينة. فلما عرفهم قال لهم: ما لنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا. ونادى مناديهم: يا محمد أخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا. وخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب وعلىّ بن أبى طالب وعُبَيْدة بن الحارث. ولم يُمْهل حمزةُ شَيْبَةَ ولا أمهل علىٌّ الوليد أن قتلاهما، ثم أعانا عُبَيدة وقد ثبت له عُتْبَة. فلما رأت قريش من ذلك ما رأت، تزاحف الناس، والتَقى الجمعانِ صبيحة الجمعة لسبع عشر خلت من شهر رمضان.

التقاء الجمعين - دعاء محمد ﷺ وابتهاله:

وقام محمد ﷺ على رأس المسلمين يعدل صفوفهم. فلما رأى كثرة قريش وقلّة رجاله وضعف عُدتهم إلى جانب عُدة المشركين عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفًا من مصير ذلك اليوم، وأشد ما يكون إشفاقًا مما يصير إليه أمر الإسلام إذا لم يتم للمسلمين النصر. واستقبل محمد ﷺ القبلة واتجه بكل نَفْسه إلى ربه، وجعل ينشُده ما وعده ويهتف به أن يُتم له النصر. وبالغ فى التوبة والدعاء والابتهال وجعل يقول: «اللهم هذه قريش قد أتت بخُيلائها تحاول أن تكذّب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى. اللهم إن تَهلك هذه العصابةُ اليوم لا تُعبد». ومازال يهتف بربه مادًّا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه؛ وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويُهيب به: يا نبىَّ الله، بعض مناشدتك ربَّك؛ فإن الله منجزٌ لك ما وعدك. ولكن محمدًا ظَنَّ فيما هو فيه أشدَّ ما يكون توجهًا وأشد ما يكون تضرُّعًا وخشية واستعانة بربه على هذا الموقف الذى لم يتوقعه المسلمون ولم يتخذوا له عُدته، حتى خفَق خَفْقَة من نُعاس رأى خلالَها نصر الله. وانتبه بعدها مستبشرًا، وخرج إلى الناس يحرضهم ويقول لهم: «والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتَل صابرًا محتسبًا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة».

القوة المعنوية:

وسرت من نفسه القوية، أمدها الله من لدنه بما سَما بها فوق كل قوَّة، إلى نفوس هؤلاء المؤمنين برسالته قوَّةً ضاعفت عزمهم، وجعلت كلَّ رجل منهم يعدِل رجلين بل يعدل عشرة رجال. ويسيرٌ عليك أن تقدر هذا إذا ذكرت ما لازدياد القوَّة المعنوية من أثر فى النفس متى توافرت أسباب ازدياد هذه القوَّة المعنويَّة فيهَا. فدافع الوطنية يزيدها. وهذا الجندى الذى يقف مدافعًا عن وطنه المهدد بالخطر مُمْتلئ النفس بالعاطفة الوطنية، تتضاعف قوَّته المعنوية بمقدار حبه لوطنه وإيمانه به، وبمقدار تخوُّفه من الخطر الذى يتهدد العدوُّ الوطنَ به. ولهذا تغرِس الأمم فى نفوس أبنائها منذ نعومة أظفارهم حبَّ الوطن والاستهانة بالتضحية فى سبيله. والإيمان بالحق وبالعدل وبالحرية وبالمعانى الإنسانية السامية يزيد القوَّة المعنوية فى النفس بما يضاعف القوَّة المادية فيها. والذين يذكرون ما قام به الحلفاء فى الحرب الكبرى من دعوة واسعة النطاق ضد الألمان، أساسُها أنهم يدافعون عن قضية الحرية والحق ويحاربون فى ألمانيا الجندية المسلحة ويهدون لعهد سلام ونور، يدركون ما كانت تضاعف هذه الدعوة من قوَّة فى نفوس جنود الحلفاء بمقدار ما كانت تحيطهم به من عطف فى أكثر أمم العالم. وما الوطنية وما قضية السلام إلى جانب ما كان محمد يدعو إليه! إلى اتصال الإنسان بالوجود كله اتصالا يندمج به فيه ويصبح قوَّة من قوى الكون الموجه له إلى سبيل الخير والنعمة والكمال! نعم ما الوطنية وما قضيَّة السلام إلى جانب الوقوف فى جانب الله ودفع الذين يفتنون المؤمنين عنه، والذين يصدُّون عن سبيله. والذين ينزلون بالإنسان إلى دَرَك الوثنية والإشراك. إذا كانت النفس يزيدها حب الوطن قوّة بمقدار ما فى الوطن كله من قوَّة، ويزيدها حب السلام للإنسانية كلها قوَّة بمقدار ما فى الإنسانية من قوَّة، فما أكثرَ ما يزيدها الإيمان بالوجود كله وبخالق الوجود كله من قوَّة!! إنه ليجعلها قديرةً أن تُسيِّر الجبال، وتحرّك العوالم، وتهيمن بسلطانها المعنوى على كل من كان أقلّ منها فى هذا الأمر إيمانًا.

تحريض محمد ﷺ المؤمنين:

وهذا السلطان المعنوى يزيد قوتها أضعافًا مضاعفة، فإذا لم يصل هذا السلطان المعنوى إلى غاية كماله بسبب ما كان بين المسلمين من خلاف قبل الموقعة، لم تبلغ القوَّة المادية كل ما تطمح إلى بلوغه، وإن هى زادت بفعل هذا الإيمان الذى ازداد قوَّة بتحريض محمد أصحابه فعوَّضهم بذلك عن قلَّة عددهم وعُدَّتهم. وفى حال النبى وأصحابه هذه نزلت الآيتان: ﴿يٰأَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ. الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

(١) سورة الأنفال آيتا ٦٥ و٦٦.

بلال يقتل أمية بن خلف:

ازداد المسلمون قوة بتحريض محمد ﷺ إيَّاهم ووقوفه بينهم ودَفْعِهم لمقاتلة العدوّ والصيحة بهم أن الجنّة لمن أحسن البلاء منهم ومن غَمس يده فى العدوّ حاسرًا. ووجَّه المسلمون أكبر همهم إلى سادات قريش وزعمائها يريدون استئصالهم جزاء وفاقًا لما عذَّبوه بمكة، ولما صدّوهم عن المسجد الحرام وعن سبيل الله. رأى بلال أميَّة بن خَلَف وابنه، ورأى بعض المسلمين الذين عرفوه بمكة حوله. وكان أميَّة هو الذى عذَّب بلالاً إذ كان يُخرجه إلى رَمْضاء مكة فيُضجعه على ظهره ويأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ليفتِنه عن الإسلام، فيقول بلال: أحَدٌ أحَدٌ - رأى بلالٌ أمية فصاح به: أميَّة رأس الكفر لا نجوتُ إن نجا! وحاول بعض المسلمين من حول أميَّة أن يحولوا دون قتله وأن يأخذوه أسيرًا. فصرخ بلال بأعلى صوته فى الناس: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خَلَف! لا نجوت إن نجا. واجتمع الناس ولم ينصرف بلال حتى قُتل أمية. وقتل معاذ بن عمرو بن الجَمُوح أبا جهل بن هشام. وخاض حمزة وعلىّ وأبطال المسلمين وطيسَ المعركة وقد نَسى كلٌّ منهم نفسه ونسى قلة أصحابه وكثرة عدوّه، فثار النقع وامتلأ الجو بالغبار، وجعلت هام قريش تطير عن أجسادها والمسلمون يزدادون بإيمانهم قوَّة ويصيحون مهللين: أحدٌ أحدٌ، وقد كشِفتْ أمامهم حُجُبُ الزمان والمكان وأمدّهم الله بالملائكة يبشّرونهم ويزيدونهم تثبيتًا وإيمانًا، حتى لكأن الواحد منهم إذ يرفع سيفه ويهوى به على عنق عدوّه إنما تحرك قوة الله يده.

محمد ﷺ وسط المعمعة:

ووقف محمد وسط هذا الوطيس يتمشّى خلالَه ملك الموت يَقُظُّ رقبة الكفر، فأخذ حفنةً من الحصباء فاستقبل بها قريشًا وقال: شاهتِ الوجوه! ثم نفحهم بها وأمر أصحابه فقال: شُدُّوا. وشدَّ المسلمون وما يزالون أقل من قريش عددًا، لكن كل واحد منهم امتلأت بنفحة من أمر الله نفسه، فلم يكن هو الذى يقتل العدوّ، ولا كان هو الذى يأسِر من يأسر، لولا هذه النفحة التى ضاعفت قوته المعنويَّة بما ضاعفت قوَّته المادية. وفى ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾[2].

لمَّا آنس الرسول أن الله أنجزه وعده وأتمَّ على المسلمين النصر عاد إلى العريش. وفرّت قريش فطاردهم المسلمون يأسِرون منهم من لم يُقْتَلْ ولم يساعفه حسن فِراره بالنجاة.

---

(١) سورة الأنفال آية ١٢.

(٢) سورة الأنفال آية ١٧.

المسلمون لا يقتلون من أحسنوا إلى المسلمين:

هذه غزوة بدر التى استقرَّ بها الأمر للمسلمين من بعدُ فى بلاد العرب جميعًا، والتى كانت مقدمة وَحْدة شبه الجزيرة فى ظلال الإسلام، ومقدمة الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف، والتى أقرَّت فى العالم حضارة لا تزال ولن تزال ذات أثر عميق فى حياته. ولقد تعجَّب إذ تعلم أن محمدًا، على ما كان من تحريضه أصحابه وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه، قد طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا بنى هاشم وألا يقتلوا بعض رجال من سادات قريش، مع أنهم اشتركوا فى قتال المسلمين، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله. ولا تحسب أنه فى ذلك أراد أن يحابى أهله أو أحداً ممن يَمُتّون إليه بآصرة القربى، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا، وإنما ذكر لبنى هاشم مَنْعهم إياه مدى ثلاثة عشر عامًا من يوم بعثه إلى يوم هجرته، حتى كان عمه العباس معه ليلة بيعة العقبة. وذكر لغير بنى هاشم من قريش جميل مَنْ قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة، التى اضطرَّته بها قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب، بعد أن قطعت قريش بهم كل صلة وكل علاقة. فهذا المعروف الذى تقدَّم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنةً يُجْزَى مَنْ قدَّمها بمثلها، بل يُجزَى بعشر أمثالها، لذلك كان شفيعًا لهؤلاء عند المسلمين ساعة القتال، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا العفو على نحو ما فعل أبو البَخْتَرِى أحد الذين قاموا فى نقض الصحيفة، فقد أبى وقُتل.

أهل القليب:

ولَّى أهل مكة الأدبار كاسفًا بالهم، خاشعة من الذل أبصارهم، لا يكاد أحدهم يلتقى نظره بنظر صاحبه حتى يوارى وجهه خجلا من سوء ما حلَّ بهم جميعًا. أمَّا المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار، ثم جمعوا الذين قتلوا من قريش فحفروا لهم قَلِيبًا فدفنوهم فيه. وقضى محمد ﷺ وأصحابه تلك الليلة فى الميدان فى شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى. وإذا جنّ الليل جعل محمد ﷺ يفكر فى نصر الله المسلمين على قلّة عددهم، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة الإيمان عضدٌ تعتزُّ به كثرتهم. جعل يفكر فى هذا، حتى سمعه أصحابه جَوْفَ الليل وهو يقول: «يأهل القليب! يا عتبة بن ربيعة، ويا شَيْبة بن ربيعة! ويا أُمَيَّة بن خلف! ويا أبا جهل بن هشام! - واستمر يذكر من فى القليب واحدًا بعد واحد - يأهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا». قال المسلمون: يا رسول الله، أتنادى قومًا جَيَّفوا[1]! قال عليه السلام: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى». ونظر رسول الله فى وجه أبى حُذَيْفَة بن عُتْبة فألفاه كئيبًا قد تغيَّر لونه. فقال: «لعلك يا أبا حذيفة قد دخلك من شأن أبيك

(١) جيفوا: أنتنوا.

شيء؟ قال أبو حذيفة: لا والله يا رسول الله! ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام. فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما كان عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى أمره» فقال له رسول الله خيرًا ودعا له بخير.

اختلاف المسلمين على الفيء:

ولما أصبح الصبح وآن للمسلمين أن يرتحلوا قافلين إلى المدينة، بدءوا يتساءلون فى الغنيمة لمن تكون، قال الذين جمعوها: نحن جمعناها فهى لنا. وقال الذين كانوا يطاردون العدوّ حتى ساعة هزيمته: نحن والله أحقّ بها، فلولانا لما أصبتموها. وقال الذين يحرسون محمدًا مخافة أن يرتدّ إليه العدوّ: ما أنتم ولاهم أحق بها منا، وكان لنا أن نقتل العدوّ ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنّا خِفْنا على رسول الله كرّة العدو فقمنا دونه. فأمر محمد الناس أن يردّوا كل ما فى أيديهم من الغنائم، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه.

قسمته بينهم على السواء:

وبعث محمد إلى المدينة عبد الله بن رَوَاحة وزيد بن حارثة بشيرين يُلقيان إلى أهلها بما فتح الله على المسلمين من النصر. وقام هو وأصحابه قافلين إلى المدينة ومعه الأسرى وما أصاب من المشركين من غنيمة جعل عليها عبد الله بن كعب. وسار القوم، حتى إذا تخطَّوْا مَضِيقَ الصَّفَراء نزل محمد على كثيب فقسم هناك النَّفَل الذى أفاء الله على المسلمين، بين المسلمين على سواء. يقول بعض المؤرخين إنه قسمه بينهم بعد أن أخذ منه الخمس، لقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

ويذهب الأكثرون من كتّاب السيرة، والمتقدمون منهم خاصة، أن هذه الآية نزلت بعد بدر وبعد قَسْم فيئها، وأن محمدًا جعل القسمة بين المسلمين على سواء، وأنه جعل للفرس مثل ما للفارس، وجعل للورثة حصة من استُشهد ببدر، وجعل حصَّةً لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدرًا ما كان قائمًا فيها بعمل المسلمين، ومن حرَّضه حين الخروج إلى بدر وتخلَّف لعذر قبله الرسول. وكذلك قسم الفيء بالقسط. فلم يشرك المقاتل وحده فى الحرب والنصر، بل اشترك فى الحرب والنصر كل من كان لعمله فى الفوز حظ أيًّا كان هذا العمل، وفى ميدان القتال كان أو بعيدًا عنه:

قتل أسيرين:

وبينما المسلمون فى طريقهم إلى مكة قُتل من الأسرى رجلان: أحدهما النَّضْر بن الحارث،

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١.

والآخر عُقْبة بن أبى مُعَيْط. ولم يكن محمد ولا كان أصحابه إلى هاته اللحظة قد وضعوا للأسرى نظامًا يكون على مقتضاه قتلهم أو فِداؤهُم أو استرقاقهم. لكن النضر وعُتْبة كانا من المسلمين أيام مُقامهم بمكة شرًّا مستطيرًا، وكانا لا ينفكان يوصلان لهم من الأذى كل ما يستطيعان. قُتل النَّضْرُ حين عُرض الأسرى على النبى عليه السلام عند بلوغهم الأثَيْل، فقد نظر إلى النضر نظرة ارتعد لها الأسير وقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلى! لقد نظر إلىَّ بعينين فيهما الموت. قال الذى إلى جنبه: ما هذا والله منك إلا رعب. وقال النضر لمُصْعَب بن عُمَيْر، وكان أقرب مَنْ هناك به رحمًا: كلِّم صاحبك أن يجعلنى كرجل من أصحابه، فهو والله قاتلى إن لم تفعل. فكان جواب مصعب: إنك كنت تقول فى كتاب الله وفى نبيه كذا وكذا، وكنت تعذِّب أصحابه. قال النضر: لو أسرتك قريش ما قتلتك أبدًا وأنا حىّ. قال مُصْعَب: والله إنى لا أراك صادقًا، ثم إنى لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود، وكان النضر أسير المِقْداد، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه مالاً كثيرًا. فلما رأى الحديث حول قتله صاح: النضر أسيرى. قال النبى عليه السلام: اضرب عنقه، واللَّهمَّ أغن المقداد من فضلك. فقتله علىُّ بن أبى طالب ضربًا بالسيف.

ولمَّا كانوا فى طريقهم بعِرْق الظَّبْيَة أمر النبىُّ بقتل عُقْبة بن أبى مُعَيط فصاح عقبة: فمنْ للصبية يا محمد؟! قال: النار. وقتله علىّ بن أبى طالب أو قتله عاصم بن ثابت، على اختلاف فى الرواية.

أنباء النصر بالمدينة:

وقبل أن يصل النبى ﷺ والمسلمون المدينة بيوم وصلها رسولاه زيد بن حارثة وعبدالله بن رَوَاحة، وَدخل كل واحد من ناحية منها؛ فجعل عبد الله ينادى على راحلته يبشر الأنصار بنصر رسول الله وأصحابه، ويذكر لهم مَنْ قُتل من المشركين. وجعل زيد بن حارثة يصنع صنيعة وهو ممتط القَصْواء ناقة النبى. وسُرّ المسلمون واجتمعوا وخرج من كان منهم فى داره وانطلقوا يهللون لهذا النصر العظيم.

اليهود والمشركون بالمدينة:

أما الذين بقوا على الشرك، وأما اليهود، فقد كُبتوا لهذا النبأ، وحاولوا أن يقنعوا أنفسهم وأن يقنعوا الذين أقاموا فى المدينة من المسلمين بعدم صحته، فصاحوا: إن محمدًا قُتل وأصحابه هُزموا، وهذه ناقته نعرفها جميعًا لو أنه انتصر لبقيت عنده، وإنما يقول زيد ما يقول هذيانًا من الفزع والرعب. لكن المسلمين ما لبثوا حين تثبتوا من الرسولين واطمأنوا إلى صحة الخبر أن زاد بهم السرور لولا حادث طرأ خفف من سرورهم. ذلك الحادث هو موت رُقية بنت النبى، وكان تركها عند ذهابه إلى بدر مريضة، وترك معها زوجها عثمان بن عفان يمرِّضها. ولما أيقن المشركون والمنافقون بنصر محمد أسقط فى أيديهم، ورأوا موقفهم من المسلمين قد أصبح موقف هوان ومذلة،

حتى قال أحد زعماء اليهود: بطنُ الأرض اليوم خير من ظهرها بعد أن أصيب أشراف الناس وسادتهم وملوك العرب وأهل الحرم والأمن.

أسرى بدر:

ودخل المسلمون المدينة قبل أن يدخلها الأسارى بيوم، فلما جيء بهم ورجعت سَوْدَة بنت زَمْعة زوج النبيّ من مناحة ابنى عفراء وكانت بهم، رأت أبا يزيد سهَيْل بن عمرو أحد الأسرى مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلم تملك نفسها أن توجّه إليه الكلام قائلة: أى أبا يزيد! أسلمتم أنفسكم وأعطيتم بأيديكم، ألاَ مِتم كرامًا! فناداها محمد من البيت: يا سَوْدة! أعلى الله عزّ وجل وعلى رسوله تحرّضين! فأجابت: يا رسول الله! والذى بعثك بالحق ما ملكت نفسى حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت. وفرّق محمد الأسارى بين أصحابه وقال لهم: استوصوا بهم خيرًا. وطفِق من بعد ذلك يفكر فيما يصنع بهم: أفيقتلهم أم يأخذ منهم الفِداء؟ إن منهم لأشدّاء فى الحرب أقوياء فى النضال، ومَنِ امتلأت بالحقد والضغينة نفوسهم بعد الذى كان من هزيمتهم ببدر وما لحقهم من عار الأسر؛ فإن هو قبل الفِداء كانوا عليه حربًا وألْبًا، وإن هو قتلهم أثار فى نفوس أهليهم من قريش ما ربما هدأ لو أنهم افتدوهم.

مقالتا أبى بكر وعمر فى الأسرى:

وعرض الأمر على المسلمين يستشيرهم ويترك لهم الخِيار. وكان المسلمون قد آنسوا من الأسرى طمعًا فى الحياة واستعدادًا لفدية عظيمة. فقال هؤلاء: لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا وأكثرهم رحمة وعطفًا، ولا نعلم أحدًا آثر عند محمد منه. وبعثوا إلى أبى بكر فقالوا له: أبا بكر، إن فينا الآباء والإخوان والعمومةَ وبنى العم وأبعدنا قريب. كلِّم صاحبك يَمُنّ علينا أو يُفَادِنا. فوعدهم خيرًا، وخافوا أن يفسد ابن الخطاب عليهم أمرهم، فأرسلوا إليه فجاءهم فقالوا له مثل قولهم لأبى بكر، فنظر إليهم شَزْرًا. وذهب وزيرا محمد إليه فجعل أبو بكر يُلِينه ويَفْثَؤه[(١)] ويقول يا رسول الله، بأبى أنت وأمى! قومُك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان وأبعدهم منك قريب. فامْننْ عليهم منّ الله عليك، أو فادِهم يَستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذتَ قوةً للمسلمين، فلعلَّ الله أن يُقْبِل بقلوبهم. وسكت محمد فلم يجبه، فقام فتنحّى. وجاء عمر فجلس مجلسه وقال: يا رسول الله، هم أعداء الله، كذّبوك، وقاتلوك وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رءوس الكفر وأئمّة الضلالة يوطىء الله بهم الإسلام ويُذلّ بهم أهلَ الشرك. ولم يجب محمد. فعاد أبو بكر إلى مقعده الأوّل وجعل يتلطف ويستعطف، ويذكر القرابة والرّحم، ويرجو لهؤلاء الأسرى الهدى إن هم أُبْقِى على حياتهم؛ وعاد عمر مثال العدل الصارم لا تأخذه فيه هوادة

---

(١) يفثؤه: يكسر غضبه ويسكنه.

ولا رحمة. ولما فرغ أبو بكر وعمر من كلامهما، قام محمد فدخل قُبَّته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس يخوضون فى شأنهم، يقف بعضهم فى صفّ أبى بكر، ويقف آخرون فى صف عمر. فشاورهم فيما يصنع، وضرب لهم فى أبى بكر وفى عمر مثلا. فأمَّا أبوبكر فى الملائكة كمثل ميكال ينزل برضا الله وعفوه عن عباده، ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم، كان ألين على قومه من العسل. قدّمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال: ﴿أُفٍّ لَكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] وأن قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّه مِنِّى وَمَنْ عَصَانى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢]، ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعزيز الحكِيم﴾[٣]. ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداءِ الله. ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّارًا﴾[٤] وكمثل موسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قلوبهمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[٥]. ثم قال: وإن بكم عَيْلَةً؛ فلا يفوتنَّكم رجل من هؤلاء إلا بِفَداء أو ضربة عنق. وتشاور القوم فيما بينهم وكان من بين الأسرى شاعر، هو أبو عزّة عمرو بن عبد الله بن عُمَيْر الجُمَحِىّ، رأى خلاف القوم واستعجل النَّجاة فقال: لى خمس بنات ليس لهنّ شىء فتصدّق بى عليهنّ يا محمد، وإنى لمعطيك موثقًا لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبدًا. فأمَّنه النبىّ وأرسله من غير فداء، وكان هو وحده الأسير الذى ظفر بهذا الأمان. على أنه ما لبث أن نكث عهده، وأن عاد فقاتل بعد عام فى أُحُد. فأُسِر وقُتِل. وظلَّ المسلمون فى تشاورهم زمنًا انتهوا بعده إلى قبول الفداء. وفى قبولهم نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٦].

جدال المستشرقين:

يقف غير واحد من المستشرقين عند أسرى بدر هؤلاء وعند مقتل النَّضْر وعُقبة ويتساءلون: أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم ظمأ لولاه لما قُتِل الرجلان، ولكان أكرم للمسلمين بعد أن كسبوا الموقعة أن يردّوا الأسرى وأن يكتفوا بالفىء الذى غنموا؟ وذلك تساؤل الذى يريد أن يُثير فى النفوس عوامل إشفاق لم يكن له يومئذ موضع، ليكون له بعد ألف سنة من هذه الغزوة وما تلاها من غزوات وسيلة للنَّيْل من الدين ومن صاحب الدين. على أن هذا التساؤل ما يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنّا بين مقتل النضر وعقبة، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائمًا ما دامت الحضارة الغربية، التى تتشح بوشاح المسيحية، متحكمة فى الأرض. فهل تراه يوازى

---

(١) سورة الأنبياء آية ٦٧.
(٢) سورة إبراهيم آية ٣٦.
(٣) سورة المائدة آية ١١٨.
(٤) سورة نوح آية ١٢٦.
(٥) سورة يونس آية ٨٨.
(٦) سورة الأنفال آية ٦٧.

شيئًا إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها! وهل تراه يوازى شيئًا إلى جانب ما وقع من مجازر الحرب الكبرى؟! ثم هل هو يوازى شيئًا مما حدث أثناء الثورة الفرنسية الكبرى، وأثناء الثورات المختلفة التى وقعت وتقع فى أمم أوربا المختلفة؟!

الثورة على الوثنية:

وليس ريب فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية من محمد بعثه الله ليقوم بها فى وجه الوثنية والمشركين من عُبَّادها. ثورة قامت أول أمرها بمكة، واحتمل محمد وأصحابه من أجلها ألوان العذاب ثلاثة عشر عامًا سويًّا. ثم انتقل المسلمون إلى المدينة وحشدوا جموعهم وقوَّاتهم بها، وما تزال مبادئ الثورة قائمة على أشدّها فى نفوسهم وفى نفوس قريش جميعًا. وانتقال المسلمين إلى المدينة، وموادعتهم اليهود من أهلها؛ وما قاموا له من مناوشات سبقت بدرًا، وغزوة بدر هذه – ذلك كله كان سياسة الثورة ولم يكن مبادئها. كان السياسة التى قرر القائم بهذه الثورة وأصحابهُ أن يتَّبعوا لإقرار أسمى المبادئ – التى جاء الرسول بها. وسياسة الثورة شىء ومبادئها شىء آخر. والخُطَّةُ التى تتَّبَع قد تختلف تمام الاختلاف عن الغاية المقصودة من هذه الخطة. أما وقد جعل الإسلام الأخوَّة أساس الحضارة الإسلامية، فيجب أن يسلك للنجاح سبله وإن اقتضى ذلك من العنف والشدّة ما لا مفرَّ منه.

مجزرة سان بارتلمى:

وهذا الذى صنع المسلمون بأسرى بدر آية فى الرحمة وفى الحسنى إلى جانب ما يقع فى الثورات التى يتغنَّى أهلها بمعانى العدل والرحمة. وهو لا شىء إلى جانب المجازر الكثيرة التى قامت باسم المسيحية من مثل مجزرة سان بارْتلمى، هذه المجزرة التى تعتبر سبَّة فى تاريخ المسيحيَّة لا شىء من مثلها قطّ فى تاريخ الإسلام. هذه المجزرة التى دُبِّرت بليل، وقام فيها الكاثوليك يذبحون البروتستنتيين فى باريس وفى فرنسا غدرًا وغِيلة فى أحط صور الغدر وأبشع صور الغيلة. فإذا قتل المسلمون اثنين من أسرى بدر الخمسين لأنهم كانوا قُساة على المسلمين، مدى الأعوام الثلاثة عشر التى احتمل المسلمون فيها صنوف الأذى بمكة، فقد كان فى ذلك من مزيد الرحمة ومن اعتبار الفائدة العاجلة ما نزلت معه الآية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

النذير إلى مكة:

بينما كان المسلمون فى فرحهم بنصر الله وما أفاء عليهم من المغانم كان الحَيسُمان بن عبد الله الخُزَاعِىّ يحثُّ الطريقَ إلى مكة، حتى كان أول من دخلها وأخبر أهلها بهزيمة قريش ومصابها فى

(١) سورة الأنفال آية ٦٧.

كبرائها وأشرافها وسادتها. وقد ذهلت مكة أول الأمر فلم تصدّق الخبر. وكيف لا تذهل وهى تسمع أخبار هزيمتها ومقتل السادة الأشراف منها! لكن الحيسمان لم يكن يهذى وكان يؤكد ما يقول وهو أشد من قريش جزعًا لما أصابهم. فلما استوثقوا من روايته خَرُّوا صَعِقين، حتى لقد حُم أبو لهب ومات بعد سبعة أيام.

موت أبي لهب - افتداء الأسرى:

وتشاورت قريش ما تصنع فأجمعت على ألا تنوح على قتلاها مخافة أن يبلغ محمد وأصحابه فيشمتوا بهم، وألا تبعث فى أسراها حتى لا يأرَب[1] عليها محمد وأصحابه ويغلوا فى الفداء. وانقضى زمن وقريش صابرة على محنتها، حتى سنحت فرصة افتدائها أسراها. إذ ذاك قدم مِكْرَز بن حفص فى فداء سُهَيل بن عمرو. وكأنما عز على عمر بن الخطاب أن يُفْتَدى وينجو من غير أن يصيبه مكروه، فقال: يا رسول الله، دعنى أَنْزِعْ ثَنِيَّتَىْ سُهَيْل بن عمرو فَيَدْلَعْ لسانه فلا يقوم عليك خطيبًا فى موطن أبدًا. فكان جواب النبى ﷺ هذا الجواب البالغ غاية السمو: لا أُمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيًّا.

افتداء أبي العاص بن الربيع وإسلامه:

وبعثت زينب ابنة النبى ﷺ تفتدى زوجها أبا العاص بن الربيع، وكان فيما بعثت قلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بَنى بها. فلما رآها النبى ﷺ رق لها رقة شديدة، فقال إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا. ثم إنه اتفق فيما بينه وبين أبى العاص على أن يفارق زينب وقد فرَّق الإسلام بينه وبينها. وبعث محمد ﷺ زيد بن حارثة وصاحبا معه فجاء بها إلى المدينة. على أن أبا العاص ما لبث بعد مدة إساره أن خرج إلى الشام فى مال قريش؛ حتى إذا كان على مقربة من المدينة لقيته سَرِية لمحمد ﷺ فأصابوا ما معه. فانحدر تحت الليل إلى أن دخل على زينب واستجارها فأجارته، ورد المسلمون على الرجل ماله فانطلق به آمنًا إلى مكة فلما رده لأصحابه من قريش قال: يا معشر قريش! هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا: لا! جزاك الله خيرًا فقد وجدناك وفيًّا كريمًا. قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والله ما منعنى من الإسلام عنده إلا مخافة أن تظنوا أنى ما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت. وعاد إلى المدينة ورد عليه النبى زينب. واستمرت قريش تفتدى أسراها. وكان الفداء يومئذ أربعة آلاف درهم للرجل إلى ألف، إلا من لا شىء عنده فقد مَنَّ عليه محمد ﷺ بحريته.

---

(١) لا يأرب عليها: لا يتشدد عليها.

بكاء قريش قتلاها. هند وأبو سفيان:

لم يهوِّن ذلك على قريش مُصابها، ولا هو دعاها إلى أن تهادن محمدًا أو أن تنسى هزيمتها؛ بل ناحت نساء قريش من بعد ذلك على قَتْلاها شهرًا كاملا، فجززن شعر رءوسهن، وكان يؤتَى براحلة الرجل أو بفرسه فَيُنُحْن حولها؛ ولم يخالف فى هذا إلا هند بنت عُتْبَةَ زوج أبى سفيان. ولقد مشى نساء منهن يومًا إليها فقلن: ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك؟! فقالت: أنا أبْكيهم فيبلغ محمدًا وأصحابه فيشْمَتوا بنا ويشمت بنا نساء الخزرج! لا والله حتى أثأر من محمد وأصحابه! والدُّهن علىَّ حرام حتى نغزو محمدًا! والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت، ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قَتَلة الأحبة. ومكثت لا تقرَب الدهن ولا تقرَب فراش أبى سفيان وتحرض الناس حتى كانت وقعة أُحُد. أما أبو سفيان فنذرَ بعد بَدْر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا.